التشاركية في الأعمال الأخروية

سؤال: تطرق الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في مؤلفاته إلى أن إجمالي الثواب الناتج عن التشارك في الأعمال الأخروية سيُكتَبُ بتمامه في دفتر حسنات كلِّ فردٍ شارك في هذه الأعمال، فما الشروط التي ينبغي مراعاتها لنيل هذه البشرى وذاك الثواب؟

الجواب: تكلّمَ الأستاذ بديع الزمان ﵀ بشكلٍ جليٍّ واضح حول مسألة التشاركية في الأعمال الأخروية، وذكر أن كلّ فرد في الخدمة الإيمانية والقرآنية سيتشاركُ مع الآخرين فيما أحرزوه من ثواب[٦٥]، ولا أذكر أنني صادفتُ قبلَ الأستاذ النورسي أحدًا تناول هذه المسألة بهذا القدر من الوضوح والبيان، لا في كتب التصوّف ولا التفاسير ولا غيرها من المؤلّفات الإسلاميّة الأخرى، حتى وإن تطرّق بعض العلماء الأجلّاء من القدامى والمعاصرين إلى هذه المسألة إلا أنّ بيانات الأستاذ النورسي حولها تفرّدت بكونها غايةً في الجلاء والوضوح.

---

(٦٥) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٦.

إن ما يقوله بديع الزمان ﷺ ليتناسبُ تمامًا مع لطافةِ العالم الميتافيزيقي النوراني؛ لأن الأشياء النورانيةَ تنعكس بعينها، فلو افترضنا أن هناك مصباحًا في غرفة بها أربع مرايا موزعة على الجدران، فلا شكَّ أن ضوء هذا المصباح سينعكس بعينه على جميع المرايا في نفس اللحظة، وهكذا فإن الثواب الحاصل عن الاشتراك في الأعمال الأُخرويّة سيُكتب كاملًا بفضلٍ من الله وعنايته في دفتر أعمال كلّ مشاركٍ في هذه الأعمال.

وجهةُ نظرٍ تعتمد على القرآن والسنة

وبدهيٌّ أنّ الأستاذ النورسي استقى هذه الأفكار من المبادئ الأساسية للقرآن والسنة؛ لأننا إذا ما نظرنا إلى القرآن الكريم المعجزِ البيان والسنة النبوية الشريفة سنجدُ أنّ توفيق الله تعالى مرهونٌ بالوفاق والاتفاق، وأن الأعمال التي تخيّم عليها روحُ الوحدة والتضامن تُكافأُ بثوابٍ وبركةٍ من نوعٍ خاص، فمثلًا يقول ربنا ﷻ في كتابه:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٠٣).

ويقول تعالى في آيةٍ أخرى:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٦٣).

وهكذا تشير هاتان الآيتان إلى أن النجاح والتوفيق اللذين يصبّان في مصلحة المجتمع يعتمدان على الوفاق والاتفاق بين المسلمين.

إن التشاركيّة في العمل وسيلةٌ لإحراز كثيرٍ من النجاحات العظيمة حتى في الأعمال الدنيوية، وإليكم هذين المثالين اللذين ضربهما الأستاذ النورسي رحمه الله:

المثال الأول: قام عشرة من صُنّاعِ إبَرِ الخياطة بعملهم، كلٌّ على انفرادٍ، فكانت النتيجة ثلاثَ إبرٍ فقط لكلٍ منهم في اليوم الواحد، ثم اتفقوا على العمل حسب قاعدة "توحيد المساعي وتوزيع الأعمال" فأتى أحدُهم بالحديد والآخر بالنار وقام الثالث بثقبِ الإبرة، ثمّ أدخلها أحدهم إلى النار وبدأ الآخر يحدّها، وهكذا دواليك... فلم يذهب وقتُ أحدهم سدًى، حيث انصرف كلٌّ منهم إلى عملٍ معيّن فأنجزه بسرعة، لأنه عملٌ جزئيٌّ بسيطٌ أوّلًا، ولاكتسابه الخبرةَ والمهارةَ فيه ثانيًا، وحينما وزّعوا حصيلةَ جهودهم رأوا أن نصيبَ كلٍّ منهم في يومٍ واحد ثلاثمائة إبرة بدلًا من ثلاث إبَر.

والمثال الثاني: اشترك خمسةُ أشخاص في إشعال مصباحٍ زيتي، فوقع على أحدهم إحضارُ النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه وعلى الأخير علبة أعواد الثِّقاب... فلمّا أشعلوا المصباح أصبح كلٌّ منهم يتمتّع بمصباحٍ كامل، فلو كان لكلٍّ من أولئك المشتركين مرآة كبيرة معلّقة بحائط، لانعكس في مرآته مصباح كامل من دون تجزُّؤٍ أو نقصٍ[٦٦].

نعم، الاشتراكُ في الأعمال الدنيوية يُفضي هكذا إلى سهولة العمل وحصول البركة فيه، ومن يُدرك هذا يستطعْ أن يعيَ بطريق الأولى كيف أن البركة والفيوضات تحفّ الأمور الأخرويّة النورانيّة الشفّافة جرّاء ارتكازِها على مبدإ التشاركية.

(٦٦) بديع الزمان سعيد النورسي: المصدر السابق.

ومن هنا نقول: إن إجماليَّ الثواب الناتج عن الخدمات الجليلة التي تحقّقت اليوم بفضلٍ من الله وعنايته في أنحاء العالم وفي كلّ مناحي الحياة ستنعكس وتُسَجَّلُ بتمامها -بسرّ التشاركيّة في الأعمال الأخروية- في دفتر أعمال كلِّ فردٍ هَرْوَلَ وسعى في هذا السبيل؛ بمعنى أن كلَّ فردٍ في هذه الدائرة الواسعة سيستفيد مِن سعي وجهد الملايين مثله، وعلى ذلك فإن تجاهلَ الثواب العام والتكالبَ على المصالح الفردية والرزوحَ تحت الأنانية وأغلالِ الكبر والغرورِ يعني الحرمانَ من هذا الثواب الجزيل؛ لأن الإنسان مهما كانت قابليّاته وقدراته، حتى وإن كان على مستوى دهاء خمسين من العباقرة فلن يمكنه وحده أن يقوم بخدمةٍ دائمةٍ ونافعةٍ للإنسانية في هذا العالم، ولن يحوز أيضًا هذا الأجرَ الأخرويَّ الجزيل.

جوهر العمل: الإخلاص

وإننا إذا ما ألقينا نظرةً إجماليّةً على ما ذكره الأستاذ النورسي في هذا الصدد سنرى أن ثمّة شروطًا خاصّةً لاستحقاق مثل هذا الثواب الجزيل، وهذا يدعونا إلى أن نسأل أنفسنا: ما الوضع الذي ينبغي لنا أن نكون عليه في هذه الخدمات التي نحاول أن نرعاها ونلتفّ حولها؟ وكيف نسير في هذا الطريق معًا؟ وكيف نتآلف ونتّحد معًا حتى نحظى بذلك الثواب؟

لقد وضع الأستاذ النورسي مبدأ "التشاركيّة المبنية على سرّ الإخلاص" شرطًا أوّليًا لإحراز مثل هذا الثواب، والإخلاص هو: أن يكون الأمرُ الإلهيّ هو الدافعَ إلى العمل لا غير، وألّا ينتظر الإنسانُ لعمله ثمرةً سوى رضا الله ﷻ، ثم يترك جَنْيَ ثمار هذا العمل إلى الآخرة، ولذا فإن المُخْلِصَ الحقيقيّ في الأمور الأخرويّة لا يهمّه سوى إنجاز الخدمات الخيرية، بغضّ النظر عمّن يقوم بها، سواء أقامَ بها هو أو غيرُه،

وبتعبير آخر: المهمّ هو أن نئنّ أنينَ الناي مع القلوب المهمومة التي تخفق معًا فتبعث النشوة في قلوب الناس، أو أن نشكّل جوقة نبلّغ بها الحقّ والحقيقة إليهم، ونوصّلهم إلى الحضرة الإلهية بأن نجعلهم يعيشون أشكالًا من "الوجد"، و"القلق"، و"الهيمان".

فإذا كان هذا هو المقصد والهدف، فعلى الإنسان أن يشعر بسعادةٍ عارمةٍ عند تَحَقُّقِ الغاية المنشودةِ بغضّ النظر عمّن حقّقها، بل عليه أن يسعدَ وكأنّه هو مَن حقّقها، ويضرب الأستاذ النورسي مثالًا في هذا السياق فيقول: "جاءني "الحافظ علي"، وقلت له: "إن خطّ الأخ "فلان" أجودُ من خطّك وأنه أكثرُ منك عملًا ونشاطًا"، وإذا بي أجد أن الحافظ علي يفتخر بإخلاصٍ وصدقٍ بتفوّق الآخر عليه، بل التَذَّ بذلك وانشرحَ؛ وذلك لأن الآخر قد تقدّم عليه في الخدمة في سبيل الله، ولقد راقبتُ قلبه وأمعنتُ فيه بدقّة، وعلِمتُ أنه ليس تصنّعًا قطّ، بل شعرتُ أنه شعورٌ خالصٌ"[٦٧]، فيا له من مثالٍ جميلٍ ومحفّزٍ على التشاركيّة في الأعمال بسرّ الإخلاص!

وبالشكلِ نفسِه يُشبّه الأستاذ بديع الزمان هذه المسألة بحَملِ كنز عظيم ثقيل والحفاظِ عليه، ويقول بضرورة أن يُسَرَّ حامِلُو هذا الكنز العظيم من اشتراك غيرهم من الأقوياء الساعين إلى مساعدتهم. أجل، ينبغي أن يأخذ كلّ واحدٍ منّا بطرفٍ من هذا الكنز فيساهم في حمله، دون أن يفكّر أبدًا من أيّ طرفٍ أمسكَ فحملَ، وما دام لكل مشتركٍ في حَمْلِ الكنز نصيبٌ منه فإنه ينبغي لكل فرد أن يفيَ بحقّ العمل الواقع على عاتقه فيما يتعلّق بهذا الكنز وألا يُخاصِمَ أو يُشاحِنَ أحدًا.

(٦٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، ملحق بارلا، ص ٥٤.

أما النجاحُ والوصول إلى سرّ الإخلاص هذا فلا يتحقّق إلا بالانسلالِ من صبغة النفس والأنانيّة، والاصطباغِ بروح الجماعة، ثم الافتخارِ بمزايا الأصحاب؛ فالحقيقة أن مَن ارتبط قلبيًّا بالخدمة الإيمانية والقرآنية ينبغي له ألّا ينسى أبدًا أنّه ينشد مسؤوليّةً ووظيفةً مهمّةً جدًّا تفوق وتسمو فوق كلّ مظاهر الشهرة والألقاب والنياشين، بل إنّه لو قيل لِمَن هو على وعيٍ وإدراكٍ بالطريق الذي يسير فيه: "هنيئًا لك... أنتَ فعلتَ كذا وكذا"، لكان الجوابُ: "لا أتذكّر، ولا أظنّ ذلك، لقد اجتهد الأصدقاء وسعوا كثيرًا، وربّما أنني كنتُ موجودًا بينهم في تلك الأثناء"، وهذا هو سرّ الإخلاص ومقياس التشاركيّة الذي تحدّث عنه الأستاذ.

روح الأخوّة والتضامن

لقد لفتَ الأستاذُ الأنظارَ إلى "التساندِ المبنيّ على سرّ الأخوّة" باعتباره الشرط الثاني للاستفادة من التشاركيّة في الأعمال الأخرويّة؛ إذ إنّ التساند والتعاضد يتحقّق حيث توجدُ الأخوّة، ذلكَ أنّ سيدنا رسول الله ﷺ بينما كان يتحدّث عن رابطة الأخوة بين المسلمين لفت الانتباه إلى العلاقة التي بين أعضاء الجسد الواحد، فقال ﷺ: "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"(٦٨)؛ فالأعضاء تشعر بالسّهَرِ والحمّى إن أصاب أحَدَها ضررٌ أو ألمٌ وتستجيبُ له بأن تشاركه حالَه تلك، والأمر كذلك تمامًا بالنسبة للمؤمنين؛ إذ ينبغي لهم أن يُكَوِّنوا رابطةَ أخوّةٍ حقيقيّةٍ صادقةٍ فيما بينهم كتلك التي بين أعضاء الجسد الواحد؛ فإذا ما حدث أيُّ حادث في المجتمع الإسلاميّ تأثّرَ كلّ واحدٍ منهم بذلك وتألّم له.

(٦٨) صحيح البخاري، الأدب، ٢٧؛ صحيح مسلم، البر، ٦٦.

أجـل، إن القلـوب المؤمنـة التـي نذرت أنفسـها للحقّ يجـدر بها أن تتعاضدَ وتتساندَ مثل أحجار القبّة كي لا تتهاوى فتسقط، عليها أن تتكاتَفَ مـع بعضهـا، وألا تسـمح بِتَعثُرِ أيٍّ مـن رفاق الدرب طـوال الرحلة التي يقومـون بهـا، فـإنْ توحَّدَ كلُّ رجـال الخدمة في إطار هـذا الفهم وصاروا جسـدًا واحـدًا، وعاشـوا الحالـة الروحيّـة نفسَـها، ووصلوا إلـى الوحدة والتعـاون الحقيقي فلسـوف تفيض حسـنات الملايين على دفتـر كلِّ فردٍ منهم على نحوٍ مستقلٍّ دون أن ينقصَ من أجر أحدهم شيءٌ.

التحرّك والسعيُ وفقًا للعقل الجماعي

الشـرط الثالـث هو "توزيـعُ المسـاعي المبنيُّ على سـرّ الاتحاد"؛ أي اقتسـام الأعمـال والمسـؤوليات والوظائـف والمهام المطلـوب إنجازها بـروح الوحدة والاتحاد، وبعبارةٍ أخرى: اكتسـابُ ملَكَـةِ العمل والتحرُّك الجمعـيّ، والحـذرُ كلَّ الحـذرِ مـن التحرُّك الفـرديّ، ولأجل هـذا ينبغي تقسـيمُ الوظائـف قبل الشـروع فـي أيّ عمـلٍ، ويجب على كلّ شـخصٍ أن يقوم بما يستطيـع القيام به، ويفعل ما يُبدع هو في عمله وأدائه.

وبعد الوفاء بهذه الشـروط الثلاثة إن اجتمـع رجال الخدمة وتشاوروا فيما بينهم بأن أَودعوا أمرهم إلى العقل الجماعي فلن يسـقطوا -بإذن الله وعنايتـه- فـي الأخطاء التي سـقط فيها العقل الفرديّ؛ لأنّ وصول عشـرة عقـول مجتمعـة إلى نتيجةٍ خاطئةٍ يمثّل احتمالًا نسـبتُه واحد في المليون؛ فإن كان عدد العقول التي تشاورت وتناصحت "عشرين" فإن نسبة احتمال وقوعها في الخطإ سوف تقلّ بذلك القدر.

ومـن هنا فإن القيام بالشـؤون والأعمال ارتباطًـا بالوعي الجمعي أمرٌ مهـمٌّ جدًّا، ولا ينبغي لإنسـان -حتـى وإن كان يمتلك من التدابير العبقريّة

الخارقة ما ليس لأحدٍ- أن يتصرّف بمفرده فيما يتعلّق بالمصلحة العامة والمجتمع من قضايا، وإنني لا أعلم في تاريخ الإنسانية أَحدًا تحرّكَ بمفرده وقرّرَ بنفسه فاستطاع بعد ذلك أن يحقّق نجاحًا مستمرًّا وتوفيقًا دائمًا. أجل، لم تستمرّ نجاحات "سزار (*Sezar*)" ولا "نابليون (*Napolyon*)" ولا "هتلر (*Hitler*)" ولا "موسيليني (*Mussolini*)"، بل لم يبق منها أيُّ شيء، لقد لَمَعَت في البداية كالنار في الهشيم، ثم ما لبثت أن خَبَت وانطفأ وميضُها بعد فترة قصيرة، لتبقى آثارها كومةً من الأنقاض المؤسفة المحزنة، أما الروّاد الحقيقيّون الذين يلجؤون إلى الوعي الجمعي فقد وُفِّقُوا ونجحوا بقدر ما ربطوا القضايا والأمور بمبدإ المشورة؛ فأنشؤوا مستقبل المجتمع الذي ينتسبون إليه بفضلِ ما حقّقوه من خدمات.

والحاصل: أن طريق الوصول إلى مَا تَعِدُ به التشاركيةُ في الأعمال الأخروية دنيا وآخرة هو: النية الصادقة والإخلاص، والعقل المشترك والوعي الجمعيُّ مع روح الأخوة والتضامن.